خطة شارون.. تطويق طارد بمكاسب احتلالية

□ يواجه ارئيل شارون رئيس الوزراء الاسرائيلي مآزق عديدة مع اركان حكومته وعلى أكثر من صعيد إزاء خطته المعروفة بـ(فك الارتباط) التي تعني تفكيك مستوطنات غزة والانسحاب منها بعد أن رفضها حزب الليكود مؤخرا .. مما استدعاه مرة أخرى إلى ادخال تعديلات عليها عبر مناورات وتكتيكات سياسية شملت أكثر من منبر سياسي ، واستدعت حراكا نشطا على صعد مختلفة وكأنها الحل السحري لكل مشاكل الكيان الاسرائيلي ، وهي لاتعدو سوى مجرد تصور سياسي مؤقت يخرج جيش الاحتلال والمستوطنين اليهود من مستنقع غزة بعد أن ارتفعت كلفة الاحتلال للقطاع بشريا وماديا واقتصاديا.

عبدالملك السلال

●وفي قراءة مضامين خطته الأحادية الجانب يريد شارون خلط الأوراق السياسية كلها بحيث ينتقل الارباك في الطرف الاسرائيلي إلى السلطة وبالذات في غزة ليحولها إلى جغرافيا طاردة للفلسطينيين او حشرهم بحيث تضيق الحياة عليهم بعدما تلقى ضمانات بحق شطب العودة ثم عدلت مؤخرا ، فعندما يدور الحديث عن أن اسرائيل بطرحها خطة الانفصال المرتبطة باخلاءات في الضفة (رمزيا) وفي غزة .. إنما تقفز إلى مرحلة متقدمة من تنفيذ البند الأول من الخطة وانطلاقا من غزة.

والبند المشار إليه هو الذي ينص على جمع سلاح فصائل المقاومة وتفكيكها واعتقال مطلوبين وتقويض بنى منظمات المقاومة الفلسطينية ، ومن الواضح أنه حتى في حال قيام السلطة الفلسطينية بهذه المهمة (شبه المستحيلة) دون ثمن كبير (احتمال الاقتتال الداخلي وارد بقوة في هذه الحالة) فإن هذا لايعني عودة السلطة لأن تكون شريكا أساسيا في مفاوضات الوضع النهائي ،، بل إن شرط هذه الشراكة قيادة جديدة تفرزها التطورات التي ستنشأ على الأرض.

ومن منظور آخر نجد أن السلطة الفلسطينية وقد اعتراها الضعف الشديد بسبب غياب المواقف العربية الداعمة وتخاذل المجتمع الدولي وتصاعد الضغوط الامريكية وانحيازها إلى جانب حكومة شارون -نجدها- مجبرة على مسايرة تنفيذ البند الأمني الذي يندرج أساسا ضمن خارطة الطريق وقد نجح الفلسطينيون بالتالي وفي أكثر من مرة من منطلق الوعي بإفشال الخطط الشارونية الهادفة إلى اشعال المواجهة الداخلية.

تغييب متعمد

● أبعاد الإصرار الصهيوني على تغييب الشعب الفلسطيني أمر يحتاج إلى معاودة جميع الشواهد عنه ، ومن واقع الملاحظة فإن شارون يفضل أن يناقش مسألة غزة كاملة مع مصر وان يقوم بتقاسم وظيفي مع الأردن في الضفة.

عمليا (وبحسب راي المراقبين) فإن حدود الدورين المصري والاردني راهنا تتمدد من قبل الطرفين بالمشاركة وليس المساهمة في التغييب ولكن بنسبة مختلفة.

لقد عاد الأمر مرة أخرى وكان الفلسطينيين يفاوضون مرة أخرى عن طريق طرف ثالث كما كان قبل اتفاقات اوسلو ، وظهر ذلك بمثابة عودة الفلسطينيين إلى مربع كانوا قد غادروه منذ وقت طويل وهم يدركون أن هناك محاولة لتغييب دورهم السياسي نهائيا.

وحين يأتي الحديث عنهم فبصيغة واحدة .. القيام بالمهمات الأمنية ، أي وقف مقاومة الاحتلال بالقوة وهو ما عجز عنه جيش الاحتلال نفسه.

وتبدو في الوقت نفسه مهمة حفظ الأمن تحت عنوان الالتزام بخارطة الطريق مما يوحي بأن جزءا كبيرا من أهداف الخطة الشارونية تتعلق بتجديد دفع الفلسطينيين إلى الحرب الأهلية.

في حين تغدو خطته مجرد انعاش لخطة قديمة طالما وضعت قيد التداول دون أن تسفر عن تطبيق عملي ويقابله اختبأ تجمع استيطاني مسكون بمركبات القوة العسكرية والعنف الشديد خلف بلدوزر يتقن صناعة الموت وانتاج الخوف معا.

وفي المسار العملي يفاوض شارون حلفاءه ومعارضيه تحت شعار تسويق الخطة المعدلة بعناوينها العريضة: اخلاء مستوطنات في غزة وأربع مستوطنات في الضفة للانفصال عن الفلسطينيين ، أما المسار الثاني وهو الأكثر أهمية حصول شارون على مكاسب تشكل حقائق منتهية قبل الشروع في أي خطوة على الأرض مهما كانت محدودة ومحورها عدم التزام اسرائيل بالعودة إلى حدود الرابع من حزيران عام ١٩٦٧م والتأكيد على عدم وجود شريك فلسطيني مقابل ضمانات مالية من أمريكا قوامها خمسة مليارات دولار للتعويض عن اخلاء المستوطنات.

- حصر حق العودة للفلسطينيين إلى حدود الدولة الفلسطينية وعند قيامها فقط.

ومن هنا تكمن خطورة الخطة الشارونية التي حازت على مكسب كبير يلغي قرارات الشرعية الدولية بشأن الانسحاب من الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧م .. كما أن الضمانات الامريكية ستتيح لشارون تثبيت جدار الفصل العنصري كخط نهائي يقوض امكانية قيام دولة فلسطينية ، ناهيك عن امكانية تنفيذ حق العودة .. مما سينتج عنه ترحيل معاكس وليس عودة.

والأخطر من ذلك أن شارون جعل المسألة برمتها نوعا من الشأن الاسرائيلي الداخلي وليس نتيجة للمقاومة الفلسطينية الباسلة (الانتفاضة) ويريد الجنرال الشاروني أن يظهر بمظهر الرجل القادر على اجتراح الحلول لكيانه المغتصب .

أحد المراقبين شبه التحركات السياسية المتواترة بأنها فوضى على مسرح للدمى ليس معروفا من يمسك بخيوطها جميعا.

والواقع أنه تكمن وراء هذه الفوضى والتشابكات جملة حقائق تكون مجتمعة المسار الفعلي للأحداث.

ويبقى بداية أن يظل حاضرا في الذهن ، ولدى أية قراءة للأحداث أن رئيس الحكومة الصهيونية واقع في مازق كبير ، ومعه الكيان الصهيوني ، ولكنه يستغل حالة الضعف العربي الراهن وتهالك بعض الأطراف الفلسطينية ، ليحول مازقه ومازق كيانه إلى أزمة للجميع يسعى من خلالها إلى دفن خارطة الطريق، وجعل الدولة الفلسطينية الموعودة بحسب اعلان بوش - دولة بلا مقومات ولاسيادة يحشر معظم سكانها - السبعة الملايين - إذا تضمن ذلك عودة اللاجئين إلى غزة على أن يكون حق العودة إلى غزة فقط .

خطة شارون التي تواجه معترضين داخل صفوف الأئتلاف الحاكم دفعه إلى تأجيل التصويت عليها لكسب المزيد من الوقت ، مهددا بانفراط عقد الحكومة اليمينية والتحالف مع حزب العمل لتمرير خطته المعدلة التي يروج لها رئيس ديوانه (دون مايسفلاس) في واشنطن الاسبوع الحالي.

وتشهد الساحة السياسية الفلسطينية - بدورها تحركات متواترة ، قمة لقاءات تعقد في غزة ورام الله ، وخارج فلسطين لتنسيق المواقف الفلسطينية تجاه الخطة وتحمل هذه التحركات عنوان الاستعداد لمجابهة الواقع الناجم عن قيام اسرائيل بخطوة أحادية الجانب ، وهي (التحركات) تتوافق مع اتصالات فلسطينية - عربية وفلسطينية دولية، وتنشغل مصر والأردن بالبحث التفصيلي في خطة شارون وتصوغان سياسات مواكبة لها.. في حين أن الخطة تتعمد في الأساس تغييب الطرف الفلسطيني بحجة انعدام وجود شريك فلسطيني يمكن التفاوض معه، وفي الوقت ذاته فإن هذا الشريك المغيب بقصدية واضحة مطلوب لأداء مهمة محددة دون أن يعرف ما إذا كان قيامه بهذه المهمة يتم من موقع الشريك ، أومن موقع المكلف.

مستنقع غزة

● وفي كل التصورات الاستراتيجية التي وضعها المخططون الصهاينة خلال الثلاثة الأشهر المنصرمة ثمة قواسم مشتركة.

إلقاء كرة ملتهبة في الحضن المصري بالنسبة إلى غزة ، مع ملاحظة دفع (الفائض السكاني) إلى سيناء ، ومن ثم تقويض حق العودة نهائيا ، ورسم حدود الدولة الفلسطينية المعلن عنها في رؤية بوش ضمن قطاع غزة.

وتبدو الحركة السياسية والاستيطانية والأمنية التي يقوم بها الصهاينة نوعا من الخطوات التمهيدية للوصول إلى ما يسمى (الحل الاستراتيجي الأمني).

ثانيا يميل الكثيرون إلى احتساب خطة شارون المعدلة والمعروفة بفك الارتباط في خانة معاركه الداخلية ، فمكانته تتراجع بنفس الفشل المتواصل لخياراته ، وهو يواجه تهديدات من منافسيه داخل حزب الليكود الذي صوت ضد خطته ، كما أن اليمين المتحالف معه لايظهر رضى كاملا عن سياساته مما قد يوقع شارون نفسه في مستنقع حل الأئتلاف الحكومي وادخال حزب العمل المعارض إلى السلطة مجددا.

وثمة من رأى أن شارون أراد من وراء هذه الخطوة التهام مساحات واسعة من الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ٦٧م ، ويحولها إلى جغرافيا طاردة لمئات الآلاف من الفلسطينيين ، وبالتالي قدم الجنرال الليكودي شارون خدمة للادارة الأمريكية المحتاجة لانجاز كبير في السنة الانتخابية ، وحصل بالمقابل على ثمن كبير وهو تأييد الاستمرار في بناء جدار الفصل العنصري وفق الرؤية الاسرائيلية والامتناع عن دفع أي تصورات قائمة ، أو أطلاق تصورات جديدة ، وكذلك الكف عن إثارة موضوع المستوطنات.

أما من رأى في غزة دوما عبئا فائضا عن الحاجة . فقد وضب أيضا على التمسك بالاحتلال والتوغل والهدم ، واقتراف المجازر في القطاع وبالذات ماذا عن غير النقاط المشار إليها والتي يمكن إدراجها في خانة جزء من دوافع ومكونات مناورة سياسية واسعة.

إن السؤال يدور حول جدية اسرائيل ، وقبل ذلك ينبغي البحث عن كلمة سر ما تمثل مفتاحا لفهم ما يجري.

يمكن أن توجد كلمة السر في تعبير واحد: «الإرباك» ، ومن رأى تعامل الفلسطينيين مع خطة شارون ، وضعه تحت التعبير السالف الذكر.

وأبدى البعض دهشة لافتة من عدم رقص الفلسطينيين طربا لإزالة المستوطنات في غزة ، وهي التي تلتهم أخصب أراضي القطاع وتنهب مياهه الشحيحة ، وتقطعه إلى ثلاثة أجزاء منفصلة.

وكذلك عدم رقصهم طربا إزاء إخلاء مرتبط بقناعاتهم بأنه يتم بسبب الانتفاضة والمقاومة ، ويجب أن يسجل كانجاز لهما وذلك باعتبار أن تكلفة الاحتلال لغزة دوما باهضة ومرتفعة ، وهي التي حركت رئيس الوزراء الاسرائيلي ودفعته إلى التخلص من مستوطنات القطاع وهو ما يمثل في إعلانه التخلي عن مستوطنة (نتساريم) التي اعتبرها يوما مثل تل أبيب، وحتى في الأوساط الصهيونية ، فإن التحذيرات تعالت من أن يصعد الفلسطينيون مقاومتهم لدفع اسرائيل نحو إخلاء مستوطنات الضفة على غرار ما سيحدث في غزة.

واقع الحال أن المضمون كله يتعلق بالمقاومة التي اربكت شارون ، وينبغي تذكيره أنه انتخب على قاعدة برنامج يعد بإنهاء الانتفاضة خلال مائة يوم.

ومضى على هذا الوعد ثلاث سنوات ونيف ، جرب خلالها شارون وجيشه كل الوسائل العسكرية باقتدار الة الحرب الاسرائيلية ، وما ارتكبته من جرائم فظيعة يندى لها جبين الانسانية ، ودون أن يعني ذلك تسجيل أي نجاح في تركيع الشعب الفلسطيني أو كسر إرادة المقاومة لديه.

إرباك متزايد

● لقد وضع استمرار المقاومة الفلسطينية الحكومة الاسرائيلية في منطقة الارباك أيا كان الشكل الظاهري الذي يصور الكيان العنصري كمنتصر في حربه على الانتفاضة ، فالواقع أنه أضحى بلا خيار بعد أن جرب جيش الاحتلال كل أصناف العدوان العسكري وتهديم المنازل والترانسفير والاعتقالات ، والحصار العسكري والعقوبات الجماعية التي لاتزال في حدودها القصوى ، وهو ما أدى إلى العجز عن تفعيل أي تصور سياسي بعد أن تأثر الاقتصاد الاسرائيلي في العمق وانعكس جليا كذلك على الأمن بفعل الانتفاضة المباركة ولذلك اراد شارون أن ينقل الارباك إلى الضفة الأخرى ،المدخل إلى كل ذلك .. هو ادراك حقيقة أن الاحتلال في مازق وأنه يناور ليتجاوز مازقه ويمكن فهم هذا الأمر ضمن مستويين:

- ضمن مستوى المناورة السياسية ، وهنا يمكن العودة إلى النقاط المشار إليها آنفا في قراءة خطة شارون الأولى والمعدلة ثانيا ، وهي كانت تحاول أن تؤدي في مضامينها إما إلى رفض فلسطيني يظهرهم كمن يتمسك ببقاء الأحتلال ، أو قبولها كخطوة معروضة من جانب واحد ، ويظهرون أنهم غير موجودين ، ويفتقرون إلى القيادة السياسية ، أو اللهاث نحو التفاوض والدخول في متاهة تجزئة القضايا وتحميل الفلسطينيين تعهدات إضافية تدفع نحو إرباك للعمل السياسي الفلسطيني المرتبك أصلا.

- مستوى التنفيذ العملي ، وهذا ما يدفع إلى قراءة متجددة لجملة الاقتراحات والتصورات التي راجت في الكيان العبري مؤخرا ، وكذلك قراءة مضامين التعقيبات التوضيحية لخطة شارون المعدلة.